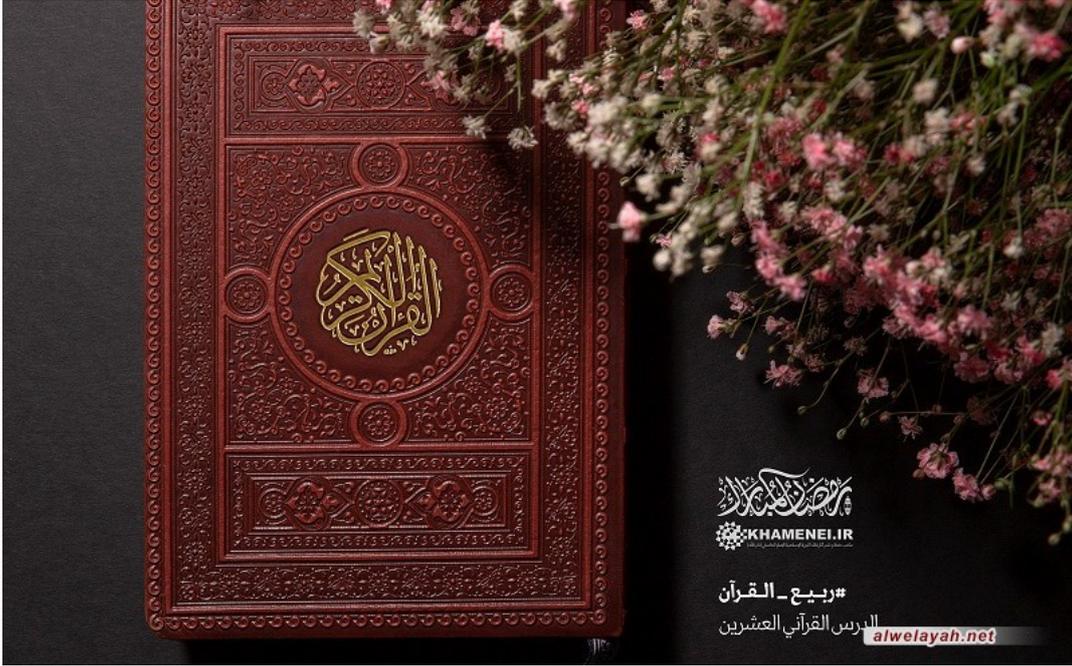


بحث قرآني: أَوْلَامٌ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ اللّٰهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا



لطالما آل اغترار الشعوب ومسؤوليهم بهم نحو السُّقوط، لا يقولنَّ أحد "أنا" فعلت ذلك، فإنَّ عزَّ وجل يقول في القرآن بلحنه الاستهزائي أنَّ قارون قال: "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عِلْمًا عِلْمٍ عِنْدِي" فأسقطه إلى أعماق الأرض، علينا أن نبذل الجهود؛ علينا أن نجاهد، فلن يبلغ أيُّ شعب أيُّ مكانة دون الجهاد، وبذل الجهود، والإبداع وقطع أشواط التقدم؛ ولا شكَّ في أنَّ البركة والتوفيق من الله جلَّ وعلا.

مجموعة من الدروس القرآنية للإمام الخامنئي التي فسَّرها سماحته وشرحها ضمن خطابه،

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عِلْمًا عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَامٌ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ اللّٰهُ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

الف) الاغترار بالنفس

ردّ قارون على النبي موسى (عليه السلام)

قصّة النبي موسى (عليه السلام) من القصص التاريخية المعبّرة والعجيبة. في هذه القصّة توجد عدّة شخصيات من أصحاب النبي موسى (عليه السلام) قد ارتدّت وانحرفت. وفي القرآن الكريم هناك عدّة نماذج منها السامريّ (١) وقارون (٢) وغيرهم من الذين امتنعوا عن الذّهاب إلى الأرض المقدّسة (٣)، هؤلاء كانوا مصاديق بارزة للارتداد والجبن.

مشكلة قارون كانت في أنّه ردّ على نصيحة النبي موسى (عليه السلام) قائلاً: "إنّما أوتيته على علم" (٤) أي بذكاءي وبتدبير، ولكن هنا أقول: ألم يكن الله سبحانه وتعالى هو الذي رزقه المال، كما يرزق الإنسان الرّوح والدين والحياة والأبناء، كم كان جاهلاً هذا الإنسان؟ لماذا يعصي ويخطئ ويُعجب بنفسه ويكثر من ترديد "أنا وأنا". ما هي الأنا؟ وما قدرها؟ يقول الله تعالى في حديثه عن المجاهدين الذين تصدّوا للأعداء وألحقوا بهم الهزيمة: "وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى" (٥) أي أنّ ما تملكه من قوّة وإرادة ودقّة في إصابة العدو كلّها من عند الله، وبعبارة أخرى كلّ ما عندك فهو من الله، ومع هذا كلّها تتناول على هذه القوّة المالكة المدبّرة المحيطة، وتتناول على الله الذي في قبضته كلّ شيء وتقول "أنا". هذه النقطة الأساس في فساد البشريّة، وهي مذمومة وباعثة على الفساد أينما وجدت. (٦)

لطالما آل اغترار الشعوب ومسؤوليهم بهم نحو السّفوط، لا يقولنّ أحد "أنا" فعلت ذلك، فإنّ عزّ وجل يقول في القرآن بلحنه الاستهزائي أنّ قارون قال: "قَالَ إِنْ نَزَمْنَا أُوتِرْتُهُ عِلْمًا عِلْمًا عِنْدِي" فأسقطه الله إلى أعماق الأرض. علينا أن نبذل الجهود؛ علينا أن نجاهد. فلن يبلغ أيّ شعب أيّ مكانة دون الجهاد، وبذل الجهود، والإبداع وقطع أشواط التقدّم؛ ولا شكّ في أنّ البركة والتوفيق من الله جلّ وعلا. (٧)

فلنعتبر أن "النعمة من عند الله"

فلنعتمد على قدراتنا ولا نتكل اتكالا ذاتيا وبملى إرادتنا على ما نتوهّم كونه قدرتنا؛ فلنسأل
الله عز وجل ونعتبر أنفسنا محتاجين له؛ لا أن نقول كما قال قارون وبعض الأمم السابقة: "إنّما أوتيته
على علمٍ عندي"؛ هذا أمرٌ خاطئ، فلنطلب العون من الله دائما؛ ولنعتبر أنّ الطريق مفتوحٌ نحو بشكل
دائم. (٨)

حقيقة الشكر هي أن يعتبر الإنسان أن النعمة من عند الله ويعتقد بهذا الأمر من أعماق وجوده بأن
النعمة الموجودة لديه من عند الله عز وجل. لا يكون الأمر على هذا النحو بأن يظنّ بأنّه هو من أمّن
هذه النعمة لنفسه. فهذا سيستدعي الغضب والحرمان من النعمة الإلهية، فمن الخطأ أن أقول "إنّما
أوتيته على علم". فأنا مخطئ لو قلت أنّني حصلت بنفسى على هذه المعرفة والقدرات. يقول القرآن
الكريم: "ما أصابك من حسنة فمن الله"؛ (٩) و"ما بكم من نعمة فمن الله"؛ (١٠) وقد علّمونا في
الدعاء بأن نقول الله عز وجل: "ما بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك لا إله إلا أنت"؛ (١١) وأقصى ما
نستطيع ادّعاءه هو أنّنا قادرون على نحفظ نعم الله عز وجل. (١٢)

الآية الكريمة: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُمُوهُم نِعْمَةً مِّنَّا قَالُوا إِنَّمَا أُوتِينَاهُمُ عَلَىٰ
عِلْمٍ» (١٣) جاءت في سورتين من القرآن الكريم هما الزمر والقصص، وتبيّن أنّ الإنسان عندما يمنحه
الله تعالى نعمة، يغفل عن الله ويتصور أنه السبب في حصوله على هذه النعمة وهذه الفرصة. (..) وهذا
عين الاغترار بالنفس، وهو خطأ كبير يمكن أن نتعرّض له جميعا. أما الآية الشريفة: « فَلا
تَغْرُرَْنَّكُمْ بِالدُّنْيَا وَلا يَغْرُرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ » (١٤) فهي تتحدث
عن صفة شبيهة بالغرور بالنفس هي الاغترار بالله تعالى، فيجب تجنّب هذه الصفة أيضا. (١٥)

ب) الاغترار بالله عز وجل

جاء في أدعية الصحيفة السجادية: «فالويل الدائم لمن اغتر بك»، «ما أطول تردده في عقابك»، «ما أبعد عن الفرج» (١٦). فالاغترار بالله تعالى يعني: سوء الظن بالله، وتوقع الأجر دون القيام بعمل صالح يستحق الأجر، كقول الإنسان: إنني عبد صالح وسأحظى حتماً برحمة الله ولطفه، وكاستغلال الإنسان لحلم الله للاستمرار بارتكاب المعاصي والذنوب.

إن قول الإمام السجاد(ع): «فالويل الدائم لمن اغتر بك» يبيّن الاغترار بالله تعالى، وهو عين ما ابتلي به بنو إسرائيل بعدما فضّلهم الله على الأمم الأخرى، لكنهم ونتيجة لاغترارهم بالله تعالى وتركهم واجباتهم التي كلّفهم الله بها، قال تعالى بحقهم: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ» (١٧) وهؤلاء هم نفس الذين وصفهم الله تعالى في آيات أخرى من القرآن الكريم أنهم شعب الله المختار بقوله: «وَأَنْزَلْنَا فِيكُمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنْتُمْ بِتَالِفِينَ» (١٨)؛ لكن وبعد ارتكابهم المعاصي، غضب الله تعالى عليهم، فقال: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا ذُوقُوا بِغَضَبِي مِنَ اللَّامَةِ».

إذاً ينبغي علينا مراجعة النفس ومراقبة القلب وتطهيرهما من الذنوب؛ حتى نلتفت إلى مسؤولياتنا الجسام وعدم الغفلة عنها. وهناك أبواب واسعة لتحقيق هذا الأمر كالصلوات الخمس، والدعاء، وأداء النوافل، وصلاة الليل، إذ يمكن أن تصبح - إذا لم يتقاعس الإنسان عن أدائها - سبباً لسمو الإنسان وصفاء قلبه والبركة في عمله. (١٩)

(١) سورة طه؛ الآية ٩٥

(٢) سورة القصص؛ الآية ٧٦

(٣) سورة المائدة؛ الآية ٢١

(٤) سورة القصص؛ الآية ٧٨

(٥) سورة الأنفال؛ الآية ١٧

(٦) كلمته في خطبتي صلاة الجمعة ١٧/٢/١٩٩٥

(٧) كلمته في لقاء مسؤولي السلطة القضائية ٢٨/٦/٢٠٠٥

(٨) كلمته في لقاء مسؤولي النظام ٦/٨/٢٠٠٣

(٩) سورة النساء؛ الآية ٧٩

(١٠) سورة النحل؛ الآية ٥٣

(١١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ج ١، ص ٧٥.

(١٢) كلمته في لقاء أعضاء مجلس الشورى الإسلامي ٢٨/٥/١٩٩٧

(١٣) سورة الزمر؛ الآية ٤٩

(١٤) سورة لقمان؛ الآية ٣٠ وسورة فاطر؛ الآية ٥

(١٥) كلمته في لقاء مسؤولي النظام ١٩/٦/٢٠٠٦

(١٦) الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٦

(١٧) سورة البقرة؛ الآية ٦١

(١٨) سورة البقرة؛ الآيتين ٤٧ و ١٢٢

(١٩) كلمته في لقاء مسؤولي النظام ١٩/٦/٢٠٠٦